مخاطر المجتمع المتعطش "للبطل المنقذ" (1)

أيوب بابو بارزاني 2021/8/8

نركز في هذه المقالة على (إقليم كردستان الفدرالي/عراق) وقد تتقاسم شعوب الشرق الأوسط الكثير من المظاهر المشابهة لما نحن بصدده هنا.

فالمنطقة شهدت أزمات وحروب عديدة داخلية وخارجية متواصلة وتعرض شعبنا للاضطهاد والعنف والمآسي على ايدي أنظمة استبدادية وحكام ظالمين وعديمي الضمير، مما خلق حالة من الشعور الدائم بالقلق والخوف والمهانة والغبن. ومن هنا يبحث الانسان المضطهد والغير قادر على حماية نفسه وعائلته عن "البطل المنقذ" لينشله من مخالب المهانة والدونية والانهيار الداخلي.

ويمكن تشبيه هذه الحالة بمعاناة الجسم من ورم خبيث يحتاج إلى طبيب أخصائي معالج، ودواء يشفي... يا ترى من هو هذا الطبيب؟ أو في السياسة من هو "البطل المنقذ"؟

الحاجة الى المنقذ تظهر عندما يشعر الضحية (الشعب) بالعجز والخوف وشلل القدرة على الدفاع عن النفس أمام خطر ماحق خارجي أو داخلي، والبحث عن منقذ يعني أنك تبدي له الطاعة وهو يتخذ قرارات تتعلق بك لأنك عاجز عن القيام بذلك، وهنا يتحول "البطل المنقذ" الى قائد وأنت الى "مقود".

ظمأ الشعوب الى "البطل المنقذ" تعبير عن حالة سيكولوجية وما ينتابها من معاناة وعدم القدرة على المقاومة فتفقد الثقة بنفسها وتستسلم وتخضع بمهانة مع كل ما تشعر به في داخلها من سخط وغضب وحقد على رموز نظام الحكم المتسلط وداعميه من الأطراف الدولية، وقد تطول مرحلة الخضوع والقهر بحسب تقدم أو تخلف المجتمعات وثقافاتها وتجاربها التاريخية ووعيها السياسي.

وتحت ضغط التعطش المزمن للخروج من الانهيار الجماعي يهمل أمراً أساسيا لتحقيق الهدف المنشود، الا وهو التأكد من امتلاك "البطل المنقذ" للكفاءات الأساسية التي تؤهله لإنقاذ شعبه من الذل والفقر والتنكيل، فيتبعه دون تمحيص وينقاد ورائه كالأعمى.

فالشعوب أو الانسان الفرد الذي اقتنع بالدونية لا يتمرد على مضطهديه بسهولة، بل يرى نفسه يستحق قسوة واستبداد المتسلط وقد يتحول لديه "الشعور بالدونية" الى الاعجاب وتقدير "الحاكم الجلاد" ويرى فيه شخصية خارقة فيتملق له ويتقرب منه ويكيل له العرفان والتبجيل. كان هذا هو الحال في ظل نظام صدام حسين، وفي مراحل معينة فرضت القيادات الكردية في أعوام الستينات والسبعينات هذا النمط من التسلط على الشعب الكردي، وفيما بعد تكرر هذا بشكل أكثر خطورة في إقليم كردستان الفدرالي بعد عام 1991 واستمرّ الى يومنا هذا.

فكثيرا ما تُنَتَقد الشعوب لخضوعها المذل لعصابة من الحكام اللصوص، والسبب هو أن الشعور بالدونية والقبول بالأمر الواقع قد تعمق لدى الشعب وتأقلم مع حكامه المستبدين، فتنهار لديه قيم الكرامة والإنسانية وملكة المقاومة، وبالعكس تزداد شهوة "سلطة الطغيان" الى المزيد من التنكيل ومصادرة حقوقه ويصل الى قناعة كون الشعب جاهل وكسول مما يستوجب سوقه بالعصى كما يفعل الراعي مع قطيعه.

حرمان الشعوب من حقوقها يشكل مرحلة خطيرة، بالأخص لدى شعوب ذوي وعي سياسي متدنٍ، فقد يتقدم "زعيم" عشائري، رجعي ومشعوذ لملء الفراغ ويكون من النموذج القادر على دغدغة مشاعر وعواطف الشعب المقهور عبر شعارات فارغة وكاذبة داعية لتحرير الأرض وإلحاق الهزيمة بالعدو وبناء الدولة القومية المقدسة وتحقيق الرفاه الاقتصادي وترسيخ النظام الديمقراطي والعدالة الاجتماعية ...الخ، فتصدقه الجماهير وتطيع أوامره.

فالرعيل الأول من قادة الحزب الديمقراطي الكردستاني في ستينات القرن الماضي وفي مقدمتهم (ملا مصطفى) رئيس الحزب والقائد العام لقوات البيشمركه وأعضاء مكاتبه السياسية، احتكروا دور "البطل المنقذ" لتخليص الجماهير من حالة الاضطهاد واليأس، فقدم الشعب الكردي خلال خمس عشر عاماً بسخاء تضحيات جسام لنيل بعض حقوقه القومية في الانتفاضة 1961-1975، انتهت الى تصفية "الثورة" ذاتها وبأمر مباشر من "البطل المنقذ" فتخلت عن مسؤوليتها التاريخية وهربت القيادة الى إيران بعد اتفاقية آذار 1975مع ما جمعته من أموال باسم الشعب والثورة. وكانت هذه القيادة قبل عبور الحدود قد قتلت العديد من السجناء السياسيين في سجن رايات وطردت آخرين من كردستان وأرغمتهم على طلب الملاذ من نظام صدام حسين، وهؤلاء لاقوا حتفهم بالآلاف فيما بعد على يد جلادي نظام البعث. وبعبارة أكثر وضوحاً ان القيادة المنهزمة قضت على "البديل المحتمل" لتولي القيادة بعد هزيمتها.

وعندما أيقظت صدمة الهزيمة، الوعي الجمعي الكردي على حقيقة جوهر "القادة الأبطال" كان الوقت متأخرا جدا، فكان عليه أن يتجرع بصورة أشدّ مرارة كأس الهزيمة والذل والانكسار لسنين طويلة.

فحالة الانكسار والمعاناة بعد هزيمة 1975 والمعاملة المهينة وعمليات الإبادة الجماعية من قبل نظام صدام حسين عمقت الشعور أكثر من ذي قَبل بالحاجة الى "البطل المنقذ" أياً كان! فعمليات الترحيل الجماعية واخلاء الريف الكردي والقضاء على نمط الحياة الكردية، ضاعف من العطش والتطلع "للبطل المنقذ".

وبسبب وقوع كردستان برمتها في قبضة السلطات الحكومية وأجهزتها الأمنية وقسوتها في التعامل مع الشعب الكردي فقد تعذر ظهور قيادة جديدة أصيلة من الداخل ومن رحم الهزيمة. وهذا عامل هام أساسي، اذ استحال ولادة قيادة مختلفة عن القيادة الفاشلة والمنهزمة. هذا العقم في ايجاد قيادة مختلفة أكثر وعيا واخلاصا وعقلانية، كبّلت الشعب الكردي بسلاسل حديدية لا فكاك منها. ومما زاد من الخطورة، أن القيادة المنهزمة ظلت تتحرك من وراء الحدود لكيلا تسيطر قيادة كردية جديدة على المناطق الحدودية والتي شهدت ترحيلا جماعيا وأخليت آلاف القرى من سكانها.

الأعضاء القياديون القدامى والجدد للحزب الديمقراطي الكردستاني وقد تشرذموا وتخاصموا، بدأوا تحت واجهات جديدة بالتحرك خارج كردستان وتحديدا من إيران وسورية بدعم من أجهزة استخباراتهما. فالسافاك الإيراني لا يثق بسوريا الأسد ولا بجلال الطالباني وقد أصبح محط أنظار شريحة كبيرة من أبناء الشعب الكردي ويجسد "البطل المنقذ" مدعوم من دمشق وقد يكون له نفوذ كبير في الشريط الحدودي المتاخم لإيران، فسمحوا لأولاد ملا مصطفى (القيادة المؤقتة) بإرسال قوات لإشعال "حرب الزعامات"، فحصلت معارك في هكاري – كردستان تحت الاحتلال التركي – وتحت أعين الميت التركي، فكانت نكسة كبيرة للقضية الكردية ومؤشر واضح على هيمنة مصالح نخبوية وعشائرية ضيقة ولامبالاة بمشروع التحرر الوطني وأن العقلية القديمة لم تتغير.

كانت معركة (هكاري) محبطة للشعب الكردي الذي كان يعاني من التهجير القسري وسياسة التعريب ومن قمع أجهزة الأمن البعثية، نعم كان هناك المناضل صالح اليوسفي وشوكت عقراوي وآخرون في بغداد، وكانوا من معارضي سياسات ملا مصطفى التي أفقدت الثورة الكردية استقلالية القرار واعتماده على الرجعية الكردية، كان من الممكن أن يكون لهما دور مختلف عن القيادات القديمة، لكن المخابرات البعثية قتلتهما مبكراً.

وباختصار استمرّ الشعب الكردي بين أعوام 1975 – 1991 - 2001 يبحث عن "البطل المنقذ" وهي الفترة الأكثر حلكة وخطورة، فقد كانت خطط نظام البعث في التعريب والترحيل القسري قيد التطبيق وبحزم، وهي الفترة التي قضي فيها على شريحة هامة من الكرد الفيلية عام 1980 وابادة البارزانيين في 1983 واستخدام الأسلحة الكيمياوية 1987- 1988 وبموازات عمليات الانفال الواسعة الموثقة في تقارير لجنة حقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة والتي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين.

أثناء حرب الثمان سنوات المفروضة على إيران، نشط قادة الأحزاب الكردية بدعم من إيران وسوريا، وكثر "الأبطال المنقذون" فنقع على أسماء: جلال الطالباني، نوشيروان مصطفى، ادريس ومسعود أولاد ملا مصطفى، سامي -محمد محمود عبد الرحمن، رسول مامند وقادة آخرين من الأحزاب والحركات الكردية الإسلامية.

باختصار أصّرت القيادات القديمة، متناسية هزيمتها وأعمالها المشينة، على ممارسة دور البطولة تحت شعارات وأسماء مختلفة لفرض نفوذها على المناطق الحدودية الكردية التي أخليت من سكانها، وشكّل هذا نكسة كبيرة في المسيرة النضالية القومية للشعب الكردي وعجزه عن افراز قيادة جديدة مختلفة عن القيادة الفاشلة وبهذا تكرست سلطة "القادة الفاشلين" ومعهم تحكمت أجهزة مخابرات الدول في توجيه الحركات المسلحة الكردية الى الوجهة التي يريدونها.

شهد المسرح الكردي خلال الفترة المذكورة حرباً أهلية على الزعامة والمال بين مسلحي الطرفين مسعود – جلال. تحالف مسعود مع صدام حسين وسَلّمَ الأخير مفاتيح أربيل الى حليفه مسعود. وكانت الأسلحة التي تمنحها دول الجوار الى الطرفين، كانت بكل تأكيد ليتقاتلوا فيما بينهم ولم يكن للدفاع عن أرض كردستان. وتجاوز عدد النازحين من الطرفين جراء "حرب الزعامات" الـ 140000 شخصاً وكانوا ضحايا "للتطهير الأيديولوجي" حسب ما كتبه الصحفي الفرنسي كريس كوتجيرا.[1] ويذكر الصحفي الأمريكي مايكل روبن: عندما زرت كردستان العراق لأول مرة في عام 2000، على سبيل المثال، كنت بحاجة إلى تصريح أمني من استخبارات الحزب الديمقراطي الكردستاني قبل أن أتمكن من السفر من أربيل إلى السليماني، المدينة الرئيسية في المنطقة التي يديرها الاتحاد الوطني الكردستاني.[2]

سيطر مسلحو حدك بالكامل على واردات إبراهيم الخليل، حوالي – مليون دولار يومياً - [3] ولم تصرف بالتساوي على كردستان كوطن وشعب واحد، فقد كانت حدود كردستان بالنسبة لمسعود تتوقف عندما يبدأ نفوذ الطالباني، ومن هنا كان احتكار واردات إبراهيم الخليل

[1] CONFLUENCES MEDTERRANEE. L'Harmattan no 34- Eté 2000.Chris Kutschera, Page:53-61

[2] FOREIGN AND DEFENSE POLICYMIDDLE EAST. JULY 12, 2021

[3] CONFLUENCES MEDTERRANEE. L'Harmattan no 34- Eté 2000.Chris Kutschera, Page:55

من قبل مسعود ومقربيه سببا رئيسيا لإشعال حرب الزعامات. وكانت كردستان مسعود المدعوم تركياً وعراقياً، أفضل حالا بكثير من كردستان الطالباني التي عانت من الاضطرابات الاجتماعية والحرمان والفقر.

كما ان محاولات التخلص المتكررة من احتكار ومصادرة قادة الفساد لحقوق وثروات ومستقبل وإرادة الشعب الكردي بائت بالفشل الى يومنا هذا. ويعود السبب الى حدٍ كبير أنّ مساعي التغيير كانت تأتي من الأعضاء "المنشقون" من داخل "السلطة الحاكمة" ونتناول نموذجين يعكسان خطورة بناء الآمال على "البطل المنقذ" غير الملتزم بالقيم الوطنية والثورية حتى النهاية.

النموذج الأول عندما انشق سامي (محمد محمود عبد الرحمن) عن ادريس ومسعود بعد طول تعاون وعمل مشترك معهما، وشكّل (حزب الشعب الديمقراطي في 26 تموز 1981) والتف حوله العديد من المثقفين وكثيرون من مناطق (بادينان) وتبنى شعارات التقدمية والديمقراطية في مواجهة رجعية أبناء ملا مصطفى وعقليتهم الاقطاعية وحزبهم العائلي العشائري. قطاعا واسعا من أبناء الشعب الكردي دعمته وبنت الآمال على تحوله الى "البطل المنقذ"، لكن خابت الآمال، اذ عاد صيف عام 1993 (سامي) الاشتراكي، الشيوعي، التقدمي والمثقف الديمقراطي الى نفس الحظيرة التي تركها قبل عشرة أعوام وهي أكثر فساداً ورجعية وعشائرية ونفاقاً وتبعية للأجندات الخارجية. تعرض (سامي) لنقد لاذع من رفاقه الى حدود اتهامه بالانتهازية والخيانة.

كيف انتصرت العشائرية والرجعية ومنظومة الفساد على التقدمية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية في مجتمعنا الكردستاني؟ هل الرجعية والعشائرية المحملة بحقائب الدولارات ومهما كان مصدرها، أقوى وأعزّ من الانتماء للوطن وقيم الكرامة؟ نموذج سامي وفيما بعد نوشيروان مصطفى أمين في ظروف مختلفة، مؤشر واضح على الخلل العميق في سلامة وحيوية قيم وأخلاق ومفاهيم مجتمعنا وهي القيم التي تُحّصِن الشعب والقائد والعائلة وتعزز حب الوطن وإرادة الصمود والمقاومة في مواجهة الاختراق الثقافي والحضاري لتدمير المجتمعات في العصر الحديث وتطويعها.

والنموذج الثاني هو نوشيروان مصطفى – نائب أمين السكرتير العام -الذي انشق عن رفيقه جلال الطالباني، وشكّل (حركة كوران) عام 2009 في جوٍ من الحرية وتوفر المال، متعهداً بمحاربة فساد السلطة والمحسوبية وتزوير الانتخابات والمظالم الاجتماعية وبناء أساس متين لمعارضة ديمقراطية حقيقية، جاءت المبادرة والاستياء الجماهيري في ذروته من فساد النخبة الحاكمة وعلاقاتها الخارجية المشبوهة ونهبها للمال العام، فانضمت الجماهير بحماس وبروح وطنية عالية الى (كوران) مما أوحى بأن هذا الشعب حيّ وتواق الى التغيير الجذري.

استبشرنا خيراً، وفي الواقع كانت الظروف الدولية والإقليمية والمحلية مؤاتيه لبناء نظام سياسي ديمقراطي فاعل يضمن تناوب السلطة سلمياً وديمقراطياً ويجلب احترام الدول لحكومة الإقليم الفدرالي وبالأخص جلب الاستثمارات الأجنبية لتطوير اقتصاد الإقليم وتنويع مصادره.

قطع نوشيروان ورفاقه بنجاح ذلك الجزء من الطريق الذي يسمح له بتشكيل (كوران) ومن ثم التفاوض من موقع القوة للمشاركة في "حكومة الفاسدين" بأربع وزراء، وللأسف الشديد لم يُكمِل النصف الباقي من الطريق – وهو الجزء الاستراتيجي والأهم -أي بناء البنى التحتية لمعارضة منظمة واعية لمستقبل الحياة الديمقراطية وأهميتها في بناء مجتمع عصري ينعم فيه المواطن بالاستقرار والأمان والعيش الكريم.

افتقر النظام السياسي الكردي ككل الى غياب البنى التحتية الصلبة لبناء حزب ديمقراطي حقيقي قادر على مواجهة التحديات الكبيرة، مما يجعله عرضة للمزاج الشخصي لمن يمسك بلجام الحزب، وكوران ليست استثناءً، وقد يعود سبب عدم اكتمال المسار الى الحالة الذهنية للنخبة القيادية وخشيتها من تجاوز التغيير ومخرجاته وافرازاته خطوطاً تفقدهم الامتيازات الشخصية ووصول فاعلين جدد أكثر ديناميكية الى موقع صنع القرار، ورغم ان الشعار كان التغيير- الا انهم في أعماقهم خافوا من التغيير، وعندما جاء وقت حسم الخيارات، تراجعوا عن الاستراتيجي واختاروا التكتيك، وشكّل ذلك ضربة مميته لمن بنى آمالا في بناء أساس متين لنظام سياسي ديمقراطي تعددي بعيد عن هيمنة العوائل الفاسدة. كان المنصب والراتب المغري والامتيازات بالنسبة لعدد من لأعضاء المتقدمين في (كوران) دافعاً قوياً في الانضمام لـ "سلطة الفساد الوراثية" في أربيل، ولطالما كانوا ينتقدونها بشدة وبنوا عليها قاعدتهم الشعبية في أوساط الجماهير الغاضبة. لاريب كان ضمن (كوران) -ولي من بينهم أصدقاء -كوادر ملتزمة ترفض التخلي عن المبادئ الأساسية لـ (كوران) وبفضلها نالوا الثقة الشعبية الواسعة، لكنهم لم يكونوا في موقع صنع القرار.

يتسم مجتمع السليمانية بفضاء من الحريات العامة ليست متوفراً في أربيل ودهوك، ولذا تأتي مبادرات التغيير من السليمانية سلباً أو ايجاباً، فبعد انكفاء (كوران) المأساوي، أعلن برهم صالح في أيلول / سبتمبر 2017 أنه سيترك الاتحاد الوطني الكردستاني، ويشكل حزبًا معارضًا جديدًا، وهو الائتلاف من أجل الديمقراطية والعدالة الذي شارك في الانتخابات البرلمانية لإقليم كردستان 2018.كما أسس رجل الاعمال والإعلامي شاسوار عبد الواحد في تشرين الأول 2017 كيان جديد (الجيل الجديد)، وفي حين تلاشى حزب برهم صالح بسرعة، استمر نشاط (الجيل الجديد). وفي شهر تموز 2021 تعرض الاتحاد الوطني الكردستاني في مستوى القمة الى صدمة غير مسبوقة، أطلق عليها البعض بـ (انقلاب القصر) وهو في الجوهر مزيج من صراع داخلي بين الأسر الحاكمة وتدخلات محلية وإقليمية.

لم يكن النظام السياسي "الديمقراطي" الشكلي، الذي أقامه الحزبان الحاكمان في اقليم كردستان المقسم بينهما منذ عام 1991 وحتى يومنا هذا، سوى غطاء لمنظومة سياسية، إقطاعية، مالية، احتكارية، عائلية أمسكت بالحكم، والسلطة ومؤسساتها المالية والمصرفية والخدماتية والتجارية. وبالطريقة التي تضمن بقاءها وهيمنتها، وتعزز مصالحها، ونفوذها في الحكم، من خلال التوريث العائلي، وتتحوّل

تدريجياً مع الوقت الى أداة استبدادية شرسة، تأبى التخلي عن امتيازاتها ومكاسبها اللاشرعية، غير مكترثة بمطالب وحقوق شعبها وان عم الفقر والعوز، وجاع الشعب واستبيحت ممتلكات الناس وأرزاقهم.

في القرن الماضي كان الشعب الكردي يبحث عن "البطل المنقذ" لأنهاء الاضطهاد الخارجي، بينما في قرننا الحالي، يبحث شعبنا عن "البطل المنقذ" لإزاحة حكم العوائل الفاسدة الكردية، والتي حوّلت حلم الشعب الى كابوس، وفرضت نفسها بقوة المال المسروق والتزوير والسلاح والدعم الخارجي منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

سلطة الفساد تستمرّ في نهجها وسلوكها وألاعيبها لتحقيق المزيد من المكاسب ولحماية امتيازاتها وأموالها وثرواتها المكدّسة في الداخل والخارج، وأنّ عقلها السياسي السلطوي يقف عند حدود مصالحها، فالسلطة المطلقة العائلية حولت (الحكومة والبرلمان والسلطة القضائية) الى آلة طيعة في خدمة مصالح العوائل الحاكمة. مما أعطى صورة سلبية جداً للعالم الخارجي وفي المحافل الدولية، وظهرت شكوك جدية في قدرتهم على إدارة أنفسهم!